

طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ صَقَّرَ يَوْمَ أُحُدٍ

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ
مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾...
تلا الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآية الكريمة، ثم
استقبل وجوه أصحابه، وقال وهو يشير إلى «طلحة»:
«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ
قَضَىٰ نَحْبَهُ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ»...!!
ولم تكن ثَمَّةُ بُشْرَى يَتَمَنَّاها أصحاب الرسول، وتطير قلوبهم
شوقاً إليها أكثر من هذه التي قلدها النبي طلحة بن عبيد الله..
لقد اطمأن إذن إلى عاقبة أمره ومصير حياته.. فسيحيا،

ويعوت، وهو واحد من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ولن
تناه فِتنة، ولن يدركه لُغوب..

ولقد بشره الرسول بالجنة، فماذا كانت حياة هذا المبشر
الكريم..؟؟

لقد كان في تجارة له بأرض بُصْرَى حين لقي راهباً من خيار
رهبانها، وأنبأه أن النبي الذي سيخرج في بلاد الحرم، والذي تنبأ
به الأنبياء الصالحون قد أهلَّ عصره وأشرقت أيامه..
وحذر «طلحة» أن يفوته موكبه، فإنه موكب الهدى والرحمة
والخلاص..

وحين عاد «طلحة» إلى بلده «مكة» بعد شهور قضائها في
بُصْرَى وفي السَّفر، ألقى بين أهلها ضجيجاً.. وسمعهم يتحدثون
كلما التقى بأحدهم، أو بجماعة منهم عن «محمد الأمين»... وعن
الوحي الذي يأتيه.. وعن الرسالة التي يحملها إلى العرب خاصة،
وإلى الناس كافة..

وسأل «طلحة» أول ما سأل عن «أبي بكر» فعلم أنه عاد مع
قافلته وتجارته من زمن غير بعيد، وأنه يقف إلى جوار «محمد»
مؤمناً منافحاً، أوَّاباً...

وحدّث طلحة نفسه: محمد، وأبو بكر...؟؟

تالله لا يجتمع الاثنان على ضلالة أبدًا^(١)

ولقد بلغ «محمد» الأربعين من عمره، وما عهدنا عليه خلال هذا العمر كذبة واحدة.. أفيكذب اليوم على الله، ويقول: إنه أرسلني وأرسل إلى وحيًا...؟؟

هذا هو الذى يصعبُ تصديقه..

وأسرع طلحة الخطي مُيمًا وجهه شطر دار أبي بكر..

ولم يطل بينهما الحديث، فقد كان شوقه إلى لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومبايعته أسرع من دقائق قلبه..

فصحبه أبو بكر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث أسلم وأخذ مكانه في القافلة المباركة..

وهكذا كان «طلحة» من المسلمين المبكرين.

وعلى الرغم من جاهه في قومه، وثرائه العريض، وتجارته الناجحة فقد حمل حظه من اضطهاد قريش، إذ وكل به وبأبي بكر نوفل بن خويلد، وكان يدعى «أسد قريش»، بيد أن اضطهادهما

(١) راجع كتابنا «وجاء أبو بكر».

لم يطل مداه، إذ سرعان ما خجلت «قريش» من نفسها، وخافت عاقبة عملها...

وهاجر «طلحة» إلى «المدينة» حين أمر المسلمون بالهجرة، ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - عدا غزوة بدر - فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد ندبه ومعه سعيد بن زيد لمهمة خارج المدينة..

ولما أنجزها ورجعا قافلين إلى «المدينة»، كان النبي وصحبه عائدین من غزوة بدر، فألم نفسيهما أن يفوتها أجر مشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم بالجهاد في أولى غزواته.

بيد أن الرسول أهدى إليهما طمأنينة سابعة، حين أنبأهما أن لهما من المثوبة والأجر مثل ما للمقاتلين تمامًا، بل وقسم لهما من غنائم المعركة مثل من شهدوها.

وتجىء غزوة «أحد» لتشهد كل جبروت قريش وكل بأسها حيث جاءت تثار ليوم «بدر» وتؤمن مصيرها بإنزاله هزيمة نهائية بالمسلمين، هزيمة حسبتها قريش أمراً ميسوراً، وقدراً مقدوراً..!!

ودارت حرب طاحنة سرعان ما غطت الأرض بحصادها

الآليم... ودارت الدائرة على المشركين..

ثم لما رآهم المسلمون ينسحبون وضعوا أسلحتهم، ونزل الرُّمّة
عن مواقعهم ليحوزوا نصيبهم من الغنائم...

وفجأة عاد جيش قريش من الراء على حين بغته، فامتلك
ناصية الحرب وزمام المعركة..

واستأنف القتال ضراوته وقسوته وطحنه، وكان للمفاجأة
أثرها في تشتيت صفوف المسلمين..

وأبصر «طلحة» جانب المعركة الذي يقف فيه رسول الله صلى
الله عليه وسلم، فألفاه قد صار هدفاً لِقَوَى الوثنية والشرك،
فسارع نحو الرسول...

وراح - رضى الله عنه - يجتاز طريقاً ما أطوله على
قصره...! طريقاً تعترض كل شبر منه عشرات السيوف
المسعورة، وعشرات من الرماح المجنونة!!

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعيد يسيل من
وجنته الدم، ويتحامل على نفسه، فجن جنونه، وقطع طريق الهول
في قفزة أو قفزتين وأمام الرسول وجد ما يخشاه.. سيوف
المشركين تلهتُ نحوه، وتحيط به تريد أن تناله بسوء..

ووقف طلحة كالجيش اللجب، يضرب بسيفه البتار ميمناً
وشمالاً..

ورأى دم الرسول الكريم ينزف، وآلامه تتن، فسانده وحمله
بعيدا عن الحفرة التى زلّت فيها قدمه.

كان يساند الرسول عليه الصلاة والسلام بيسراه وبصدره،
متأخراً به إلى مكان آمن، بينما يمينه - بارك الله يمينه - تضرب
بالسيف وتقاتل المشركين الذين أحاطوا بالرسول، وملئوا دائرة
القتال مثل الجراد...!!

ولندع الصديق أبا بكر رضى الله عنه يصف لنا المشهد..
تقولُ عائشة:

«كان أبو بكر إذا ذُكِرَ يوم أحد يقول: ذلك كله كان
«يوم طلحة».. كنتُ أولَ من جاء إلى النبي صلى الله
عليه وسلم، فقال لى الرسول ولأبى عبيدة بن الجراح:
دُونُكُمْ أَخَاكُمْ..»

«ونظرنا، وإذا به يضع وسبعون بين طعنة.. وضرب
ورميه.. وإذا أصبعه مقطوعة.. فأصلحنا من شأنه..»



وفى جميع المشاهد والغزوات، كان طلحة فى مقدمة الصفوف
يبتغى وجه الله ويفتدى راية رسوله.

ويعيش «طلحة» وسط الجماعة المسلمة، يعبد الله مع
العابدين، ويجاهد فى سبيله مع المجاهدين، ويرسّى بساعديه مع
سواعد إخوانه قواعد الدين الجديد الذى جاء ليخرج الناس -
جميع الناس - من الظلمات إلى النور.

فإذا قضى حق ربه، راح يضرب فى الأرض، وابتغى من فضل
الله مُنمياً تجارته الرابعة، وأعماله الناجحة..

فقد كان «طلحة» رضى الله عنه من أكثر المسلمين ثراء،
وأغناهم ثروة..

وكانت ثروته كلها فى خدمة الدين الذى حمل مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم رايته..

كان يُنفق منها بغير حساب..

وكان الله يُنمّيها له بغير حساب!

لقد لقّبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ «طلحة الخير»
و«طلحة الجود» و«طلحة الفيّاض» إطرأً لجوده المُفيض..

وما أكثر ما كان يخرج من ثروته مرة واحدة، فإذا الله الكريم
يردها إليه مضاعفة..

تحدثنا زوجته «سعدى بنت عوف» فتقول:
«دخلت على طلحة يوماً فرأيتها مهموماً، فسألته:
ما شأنك..؟؟»

فقال: المال الذى عندي.. قد كثر حتى أهمني
وأكرّبنى...

وقلت له: ما عليك.. أقسمه..
فقام ودعا الناس، وأخذ يقسمه عليهم حتى ما بقى
منه درهم..».

ومرة أخرى باع أرضاً له بثمان مئتين، ونظر إلى كومة المال
ففاضت عيناه من الدمع ثم قال:

«إن رجلاً تبیت هذه الأموال فى بيته لا يدري
ما يطرق من أمر، لمغرور بالله..».

ثم دعا بعض أصحابه وحمل معهم أمواله هذه، ومضى فى
شوارع المدينة وبيوتها يوزعها، حتى أسحرَ وما عنده منها
درهم..!!

ويصف جابر بن عبد الله جود طلحة فيقول:

«ما رأيتُ أحدًا أعطى لجزيل مال من غير مسألة، من
طلحة بن عبيد الله».

وكان من أكثر الناس برًا بأهله وبأقربائه، فكان يعولهم جميعًا
على كثرتهم..

وقد قيل عنه في ذلك:

«... كان لا يدع أحدًا من بني تميم عائلًا إلا كفاه
مئونته، ومئونة عياله..

«وكان يزوج أياماُهم، ويخدم عائلهم، ويقضى دين
غارمهم».

ويقول السائب بن زيد:

«صَحِبْتُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ
فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا، أَعَمَّ سَخَاءً عَلَى الدَّرْهِمِ، وَالثَّوبِ،
وَالطَّعَامِ مِنْ طَلْحَةَ»...!!

وَتَنَسَّبُ الْفِتْنَةَ الْمَعْرُوفَةَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويؤيد طلحة حجة المعارضين لعثمان، ويزكي معظمهم
فيما كانوا ينشدونه من تغيير وإصلاح..

أكان بموقفه هذا، يدعو إلى قتل عثمان، أو يرضى به..؟؟
كلا...

ولو كان يعلم أن الفتنة ستتداعى حتى تتفجر آخر الأمر
حقداً مخبولاً، ينفس عن نفسه فى تلك الجناية البشعة التى ذهب
ضحيتها «ذو النورين» عثمان رضى الله عنه.

نقول: لو كان يعلم أن الفتنة ستتدادى إلى هذا المأزق
والمنتهى لقاومها، ولقاومها معه بقية الأصحاب الذين آزروها أول
أمرها باعتبارها حركة معارضة وتحذير، لا أكثر..

على أن موقف طلحة هذا، تحوّل إلى «عُقدة حياته» بعد
الطريقة البشعة التى حوَصر بها عثمان وقُتِلَ، فلم يكد الإمام على
يتقبل بيعة المسلمين بالمدينة ومنهم طلحة والزبير، حتى استأذنه
الاثنان فى الخروج إلى مكة للعمرة.

ومن مكة توجهوا إلى البصرة، حيث كانت قوات كثيرة تتجمع
للأخذ بثأر عثمان..

وكانت «وقعة الجمل» حيث التقى الفريق المطالب بدم
عثمان، والفريق الذى يناصر علياً.

وكان علىّ كلما أدار خواطره على الموقف العسير الذى يجتازه
الإسلام والمسلمون فى هذه الخصومة الرهيبة، تنتفض همومه،
وتهطل دموعه، ويعلو نحيبه..!!
لقد اضطر إلى المأزق الوعر.

فبوصفه خليفة المسلمين، لا يستطيع، وليس من حقه أن
يتسامح تجاه أى تمرد على الدولة، أو أى مناهضة مسلحة للسلطة
المشروعة..

وحين ينهض لقمع تمرد من هذا النوع، فإن عليه أن يواجه
إخوانه وأصحابه وأصدقاءه، وأتباع رسوله ودينه، أولئك الذين
طالما قاتل معهم جيوش الشرك، وخاضوا معاً تحت راية التوحيد
معارك صهرتهم وصقلتهم، وجعلت منهم إخواناً بل إخوة
متعاضدين..

فأى مأزق هذا..؟ وأى ابتلاء عسير..؟

وفى سبيل التماس مخرج من هذا المأزق، وصون دماء المسلمين
لم يترك «الإمام على» وسيلة إلا توسل بها، ولا رجاء إلا تعلق
به.

ولكن العناصر التى كانت تعمل ضد الإسلام، وما أكثرها،

والتي لقيت مصيرها الفاجع على يد الدولة المسلمة، أيام عاهلها
العظيم عمر، هذه العناصر كانت قد أحكمت نَسْجَ الفتنة،
وراحت تُغذيها وتُتابع سيرها وتَفاقُمها...

بكى على بكاء غزيراً، عندما أبصر أم المؤمنين «عائشة» في
هودجها على رأس الجيش الذي يخرج الآن لقتاله...
وعندما أبصر وسط الجيش طلحة والزبير، حواريي رسول الله..
فنادى طلحة والزبير ليخرجا إليه، فخرجا حتى اختلفت
أعناق أفراسهم..

فقال لطلحة:

«يا طَلْحَة، أَجِئْتَ بِعُرسِ رسول الله تقاتلُ بها، وخبأت
عُرسَكَ في البيت»؟؟؟

ثم قال للزُّبير:

«يا زُبَيْر..»

«نَشَدْتُكَ الله، أتذكر يومَ مَرَبِّكَ رسول الله صلى الله
عليه وسلم ونحن بمكان كذا، فقال لك: يا زبير، ألا
تُحِبُّ عَلِيًّا..؟؟؟

«فقلتُ: أَلَا أَحِبُّ ابْنَ خَالِي، وابن عمي، وَمَنْ هو عَلِيٌّ ديني...؟؟»

«فقال لك: يا زُبَيْرُ، أما والله لَتُقَاتِلَنَّهُ وأنت له ظالم...!!»

قال الزبير رضى الله عنه: نعم أذكرُ الآن، وكُنْتُ قد نسيته، والله لا أقاتلك..

وأقْلَعَ الزبير وطلحة عن الاشتراك في هذه الحرب الأهلية..
أقْلَعَا فَوَرَ تَبَيَّنَهَا الأمر، وعندما أبصرا «عمار بن ياسر» يُحَارِبُ في صف عَلِيٍّ، وتذكَّرا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار:

«تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ»...

فإن قُتِلَ «عمار» إذن في هذه المعركة التي يشترك فيها طلحة، فسيكون طلحة باغياً..

انسحب طلحة والزبير من القتال، ودفعوا ثمن ذلك الانسحاب حياتهما، ولكنها لَقِيَها الله قريرة أعينها بما مَنَّ عليهما من بصيرة وهُدى..

أما الزبير فقد تعقبه رجل اسمه «عمرو بن جرموز» وقتله
غيلة وغدرًا وهو يصلى..!!

وأما «طلحة» فقد رماه مروان بن الحكم بسهم أودى بحياته..

كان مقتل «عثمان» قد تشكّل في نفسية طلحة، حتى صار -
كما قلنا من قبل - عُقدة حياته..

كل هذا، مع أنه لم يشترك في القتل ، ولم يُحرض عليه، وإنما
ناصر المعارضة ضده، يوم لم يكن يبدو أن المعارضة ستمادى
وتتأزم حتى تتحول إلى تلك الجريمة البشعة..

وحين أخذ مكانه يوم الجمل، مع الجيش المعادى لعلی بن
أبي طالب والمطالب بدم عثمان، كان يرجو أن يكون في
موقفه هذا كفارة تُريجه من وطأة ضميره..

وكان قبل بدء المعركة يدعو ويصرع بصوت تخنقه الدموع،
ويقول:

«اللهم خذ مني لعثمان اليوم حتى ترضى»..

فلما واجهه على هو والزبير على النحو الذى أسلفنا، أضاءت

كلمات «على» جوانب نفسيهما، فرأيا الصواب وتركاً أرض القتال..

بيد أن الشهادة كانت مَذْخُورَةً لهما..

أجل.. كانت الشهادة من حظ طلحة يدركها وتدرکه أيّان يكون.. ألم يقل الرسول عنه:

«هذا مَن قَضَى نَحْبَهُ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَرَى شَهِيدًا يَمْشَى عَلَى الْأَرْضِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ»...؟؟

لقى الشهيد إذن مصيره المقدور والكبير، وانتهت «وقعة الجمل»..

وأدركت أم المؤمنين «عائشة» أنها تعجلت الأمور فغادرت البصرة إلى البيت الحرام فالمدينة، نافضة يديها من هذا الصراع، وزودها الإمام على في رحلتها بكل وسائل الراحة والتكريم..

وحين كان - على - يستعرض شهداء المعركة راح يصلى عليهم جميعاً، الذين كانوا معه، والذين كانوا ضده...

ولما فرغ من دفن طلحة، والزبير، وقف يودعها بكلمات جليلة، اختتمها قائلاً:

«إني لأرجو أن أكون أنا، وطلحة ، والزبير، وعُثمان
من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ
مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾..»

ثم ضمَّ قبريهما بنظراته الحانية الصافية الآسية وقال:
«سمعت أذنأي هاتان رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم
يقول:

«طلحة والزبير، جارأي في الجنة»...
